مهيار الديلمي

دلالة شعره على نسبيته

لئن كان في الأمثال القائمة اليوم من حولنا في ميدان الأدب ونهضة الثقافة، كما يقولون من مثل يصح أن يدل على شيء من الإفراط في احتذاء الأساليب التي رسمها لنا أدباء القرن الماضي، أو من التفريط في دراسة نبغاء لا تعرف لأي سبب من الأسباب ظلوا مهملين طوال العصور، فإن إغفال اسم مهيار الديلمي لمن أخص تلك الأمثال، وكذلك لا تعرف لأي سبب من الأسباب عكف الأدباء على دراسة بعض شخصيات بائرة، غير أنها على جدبها وبورها خصت في كل عصور الأدب العربي بأقصى ما بذل الأدباء والباحثون من عناية بالبحث والاستقصاء، وهل تجد أنَّ اسم مهيار بين الأدباء والشعراء بأسعد حظًّا من ابن الرومي؟ وكلاهما شاعر فحل، وكلاهما عبَّر عن نزعات قامت من حوله ورسم في الشعر الجزل صورًا استحالت إليها نفسيته، وما هي إلا صورة الحياة الصحيحة تجلت في أوضاع لغة، كلاهما كان عنها غريبًا، وكلاهما استوعبها استيعابًا يدل على نبوغ أصيل وعبقرية موروثة؟

لا نعرف من هذا إلا أنَّ في الحياة سرًّا كامنًا يحرك ظواهرها على مقتضى ظروف نعرفها، ولكنا لا نستطيع أن ندرك من مؤثراتها شيئًا، لماذا يكون أبو نواس سمر الأدباء في كل عصر، ولماذا يظل المتنبي قبلة المتأدبين في كل آن ولا يذكر اسم مهيار أو اسم

ابن الرومي مرة، إلا بعد أن يذكر شعراء أقل منهما في الأدب منزلة، وأدنى منهما في الشعر مكانة كديك الجن وصردر وأبو الشمقمق، ألوفًا من المرات؟ السبب في هذا تكاد تلمسه إذا أنت نظرت في الفرق بين شعر تجود به سليقة مستمدة من خيال آرِيٍّ، وآخر تخرجه سليقة تستمد من خيال ساميٍّ الأصل، والفرق بين العقل الآرِيِّ بكل توابعه، مباين جهد المباينة للعقل السامي، فالفرق بينهما جَلِيٌّ في المدنية التي أخرجها كلاهما، كما هو بَيِّنٌ في صور الدين والشعر والموسيقى وبقية الفنون، فإن أخص ما يمتاز به العقل الآرِيُّ حب التنويع والقدرة على الجمع بين المتناقضات، ففي دين فارس الآرية، وفي عصرها الوثني تجد أنَّ الأصل في العالم عنصران عنصر النور، وعنصر الظلام، يمضيان متعاقبين، وأحدهما يمثل الخير والآخر يمثل الشر، في حين أنك لا تجد في الأديان السامية من شيء سوى التوحيد المطلق من كل قيد اللهم إلا فكرة الوحدة الآخذة بأطراف العقل من كل جهاته، وهكذا الحال في الفنون على اختلاف صورها وعلى تشعب مناحيها، تجد أنَّ فكرة الجمال قد اتحدت في العقل الآرِيِّ بفكرة الألفة اتحادًا تامًّا، في حين أنَّ العقل السَّامِيَّ لم يدرك إلا فكرة الجمال، وعجز عن أن يكون من بين الأجزاء المفردة الجميلة بحق وحدة فيها ألفة تلتئم وما في أجزائها من جمال.

أتخيل أنَّ هذا سبب من أخطر الأسباب التي من أجلها لم يستسغ العقل السَّامِيُّ شعر مهيار ولا شعر ابن الرومي، على أنك لا تقع في ظاهر شعرهما على شيء ينفر منه الأدب أو تأباه الديباجة العربية، ولكن لسببٍ خفيٍّ لا تستطيع أن تقول ما هو؟ غير أنه في غالب الأمر ما ذكرنا من الفرق بين منتجات العقل الآري، ومنتجات العقل السامي، إذ تعكس كلتاهما على النفسيات المختلفة صورًا لا نستطيع لدقتها أن نحدد أثرها في الأنفس والعقول تحديدًا تامًّا.

وكذلك الحال إذا نظرت في الفلسفة التي أنتجها العقل الآري، والفلسفة التي أنتجها العقل السامي، فإنك تجد مثلًا أن أحط صور الغيبيات التي أنتجها العقل الآري، لا تطاولها أرقى الصور الغيبية التي أنتجها العقل السَّامِيُّ في الفلسفة، وكذلك الحال في العقل السامي، فإن أحط صور التوحيد التي أنتجها العقل السَّامِيُّ لا تطاولها أرقى الصور التي أنتجها العقل الآرِيُّ في الدين، ولأي من الأسباب لم يعش دين المسيح — عليه السلام — في بيئته السامية الأصلية؟ لأنه بثالوثه المعروف منافٍ لأوضاع العقل السَّامِيِّ ولخصائصه، بقدر ما هو ملائم لنزعات العقل الآري، لهذا نزح إلى أوربا ليعيش هنالك، في ثنايا العقل التيوتوني المستمد من العقل الآرِيِّ وراثة ومنزعًا.

أما شاعرنا الذي نريد أن نتكلم فيه اليوم فهو مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسي الديلمي، ومهيار ومرزويه اسمان فارسيان أصيلان في الفارسية عريقان في العجمة، فلا مطعن إذن في نسبته الفارسية لا من ناحية التاريخ، ولا من ناحية النسب.

كان مجوسيًّا وأسلم، ويقال: إنَّ إسلامه كان علي يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي، وهو شيخه وعليه تخرج في نظم الشعر، كما يقول مؤرخو الأدباء: وإنه وازن كثيرًا من قصائد أستاذه، وتوفي سنة ٤٢٨ من الهجرة، وأسلم على الحقيق سنة ٣٩٤هـ، فكأنه عاش ستة وخمسين عامًا قبل أن يدركه الأجل المحتوم، وعندي أنه لم يسلم إلا بعد أن أدرك من العمر مدى عنده استطاع أن يختار بين الأديان، وأن يوازن بينها ليختار له دينًا، كما سترى عندما نتناول قصيدته التي نظمها بعد إسلامه منوها بالكثير من حالاته وخصائص نفسه.

لشعر مهيار ديباجة وحدها، وفيه من متانة التركيب وحسن السبك ما لا تجده في كثير من شعراء عصره الذين انتموا إلى البيئة التي حوته، غير أنَّ طول نفسه في قصائده قد يضيع عليه شيئًا من قوة الانسجام وحسن السبك وجمال النسق، ولذا فأنت لا ترى مهيارًا في قوة شاعريته الصحيحة بقدر ما تراه في مقاطيعه القصيرة، وهي قليلة قد تبلغ حد الندرة في ديوانه الكبير، ولنأتِ هنا بمثالين من مقطوعاته، أحدهما في الوصف، والآخر في الفخر لنستدل بهما على أنَّ مهيارًا في مقطوعاته لا يدانيه إلا شاعرنا صبري في المحدثين: قال مهيار في وصف النيلوفر:

ساهرة الليل نئوم الضحى ... ريَّانة والأرض تشكو الظما
رائحة في السرب لم تقتنص ... ظباؤه إلا بأمر الدجى
ملتئم فوها وإن لم يكن ... في شفتيها ما لها من لما
حية ماء ناقع سُمُّها ... وناقع سُمِّ الأفاعي الصفا
تعطيك منها ألسنا عدة ... مجتمعات كلها في لها

وأنت إذا تأملت هذا الوصف وأطلت فيه التأمل وقعت على نزعة مهيار، فهو في وصفه للنيلوفر لم يتناول أخذه بالنفس وجمال زهره أو أريجه أو غير ذلك مما يتناوله شعراء العرب في وصفهم، بل وصف النيلوفر وصف شاعر تغلب في عقله نزعة الاستقراء

والاختبار والمشاهدة، وهي نزعة من أخص ما طوى عليه العقل الآرِيُّ من النزعات، وأما المقطوعة الثانية فيقول فيها مفاخرًا:

أعجبتْ بي بين نادي قومها أُمُّ سعد فمضت تسألُ بي
سَرَّها ما علمتْ من خُلُقِي فأرادت علمها ما حَسَبِي
لا تخالي نسبًا يخفضني أنا من يُرضيكِ عند النسب
قَوْمِيَ استولَوْا على الدهر فتى ومشَوْا فوق رءوس الحِقَبِ
عمموا بالشمس هاماتهمو وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبي كسرى؛ علا إيوانه أين في الناس أبٌ مثلُ أبي
سورة الملك القدامى وعلى شرف الإسلام لي والأدب
قد قبست الملك عن خير أبٍ وقبست الدين عن خير نبي
وضممت الفخر من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب

وهذا من بالغ الفخر الذي تتجلى فيه نفسية ذلك الشاعر الكبير وعظمته، وهي إن بلغت من الدلالة على عزة نفسه ونزعته القومية وأثر الدين، فإنها لتدل على أنه لم يلجأ إلى المديح إلا مماشاة للروح التي سادت في عصره، تلك الروح التي كان يلجأ إليها الشعراء لجوء الحاجة طورًا ومتابعة لقضاء المآرب السياسية طورًا آخر، على أنَّ قوم مهيار الذين سادوا الدهر فتى ومشوا فوق رءوس الحقب، لقوم لم يسعد قوم غيرهم بفخر كفخر شاعرهم الأعجمي أَرُومَةً، العربي لغة ومنزعًا، فأين من هذا قول المتنبي مثلًا:

أحارب خيلًا من فوارسها الدهر وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر

بل أين منه قول شاعرنا البارودي:

إذا استل منا سيد غرب سيفه تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

فإن الخيل التي من فوارسها الدهر، والسيوف التي تتفزع الأفلاك إذا ما اسْتُلَّتْ، ليست بشيء إلا خيال الشاعر العبقري مصوغًا في الكلام، ولكن القوم الذين سادوا الدهر، ومشوا فوق رءوس الحقب هم قوم من المستطاع أن تظهر كيف سادوا الدنيا، وبقية

العالم في ظلام، وكيف مشوا فوق رءوس الحقب؛ إذ كانوا حتى في زمان المدنية العربية سادة الفكر الإنساني، وهم بعدُ مغزوة أرضهم، منكسة أعلامهم.

الظاهر من شعر مهيار، ومن كثير من حالات حياته أنَّ إسلامه كان صادقًا، وأنه أخلص لدينه المنتحل إخلاص أهله لدينهم الوثني القديم، فلست ترى في كل شعره موضعًا واحدًا يدل على حنينه إلى دين آبائه الأولين، بل ولا خطرة فكر يفيض بها بيت من أبياته بحيث يمكن أن تستدل منه على أنَّ كوامن نفسه قد تحركت ساعة واحدة بحنين لوثنيته الأولى، ذلك دليل على أنه أسلم للإسلام مقتنعًا راضي النفس مرتاح الضمير لأن يتبدل الوثنية بالإسلام، على الضد من كثير ممن أسلموا إسلامًا ظاهرًا كابن المقفع مثلًا، فإن الروايات عن إسلامه كثيرة والقَصص من حوله متشاكلة وجوهه، فقد رُوِيَ أنه مر يومًا ببيت نار من بيوت الزرادشتيين فتمثل بقول الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني قسمًا إليك مع الصدود لأَمْيَلُ

أما في شعر مهيار فلم أجد شيئًا من هذا بل ولم أقع على رواية تدل على نزعة نفسه إلى الوثنية ناظمًا أو متمثلًا بقول غيره: وإنَّ في قصيدته التي نظمها لَمَّا أنْ مَنَّ الله عليه بالإسلام، ولَمَّا أنْ صرفه الله عما كان يتردد في صدره من ميل إلى النصرانية كما يقول مؤرخوه لبلاغًا وعظةً واسترسالًا، وإن دل على شيء فإنما يدل على صفاء النفس وراحة الضمير والدعوة الرشيدة لمعتقده الثابت، وهي قصيدته التي يقول فيها:

دواعي الهوى لك أنْ لا تُجيبا هجرنا تُقًى ما وصلنا ذنوبا
قفونا غرورك حتى انجلت أمورٌ أَرَيْنَ العيون الغيوبا
نصبنا لها أو بلغنا بها نُهًى لم تدع لك فينا نصيبا
وهبنا الزمان لها مقبلا وغصن الشبيبة غَضًّا قشيبا
فقل لمخوِّفنا أن يحول صِبًى هرمًا وشبابًا مشيبا
وَدِدْنَا لِعِفَّتِنَا أننا وُلِدْنَا إذا كُرِهَ الشيب شيبا
وبلِّغْ أخا صحبتي عن أخيك عشيرته نائبًا أو قريبا

تبدلت من ناركم ربَّها وخبث مواقدها الخلد طيبا
حبست عناني مستبصرا بأية يستبقون الذنوبا
نصحتكم لو وجدت المُصِيخَ وناديتكم لو دعوت المجيبا
أفيئوا فقد وعد الله في ضلالة مثلكمو أن يتوبا

ومن هذه القطعة وحدها تقع على عدة صور استحالت إليها نفسية مهيار قبل إسلامه، وتستدل على حالات كثيرة نعددها هنا استيفاء لشيء من مستفيض البحث إذا نحن أردنا أن نتابع الكلام في مهيار بما يستحق من الإجلال، وبما يشغل من مكانة في عالم الأدب.

أَولًا: أنه تابع الهوى وجرى وراء موحيات الشهوة أشواطًا.

ثانيًا: أنه كشف له عن الغيب حتى انجلى لعينيه فأبصرتا ما كان خافيًا، وشهدتا ما كان غيبًا، ولعل في هذه الإشارة دليلًا على أنه اشتغل بالتصوف حينا قبل أن يعتنق الإسلام، وليس بغريب أن يشتغل فارسي يتلقى عن الشريف الرضي الأدب والعلم بالتصوف، وأن يجاري أهل الباطن في طرقهم المتشعبة، أما إذا صح هذا، فإننا ننسب أغلب ما في شعره من رنة الحزن وعميق الهم إلى اشتغاله بطرق المتصوفين.

ثالثًا: أنه نصب للبحث وراء تلك الأمور والزمان في إقباله؛ أي في شرخ شبابه وفتوته، ومن هذا يُستدل على أنه لم يُسلِم إلا بعد أن قضى طور الشباب، فإذا كان قد أسلم وهو في الثلاثين من عمره، وكان إسلامه في العام الذي نظم فيه هذه القصيدة ٣٩٤، ووفاته في عام ٤٢٨هـ فكأنه عمر إلى منتصف العقد التاسع، وأنه لم يمت إلا في الخامسة والثمانين.

رابعًا: أنه أرشد قبل إسلامه حتى لم يبق لدواعي الهوى في نفسية من نصيب.

خامسًا: أنه بقي عهدًا يتراوح بين عقيدتي الإسلام والنصرانية، وأنه ما من سبب رجح عنده كفة الإسلام إلا اشتغاله بآداب العرب ومعاشرته للمسلمين، وتمكنه من أسباب اللغة العربية التي هي لغة القرآن، نواة الإسلام الحية الباقية على الدهور.

لا تجد في شعر مهيار من صفة ظاهرة جلية تعبر عما استحالت إليه نفسه من الصور إلا صفة النواح على الدهر وعلى صروفه، ونظره في الحياة نظر الزاهد فيها الكاره لها، غير أنَّ زهده في الحياة غير مشوب بشيء من التشاؤم، فلا هو من طابع أبي العلاء،

ولا هو من صفاء الخيام، بل هو في زهده عن الحياة وبعده عن الصورة المألوفة لشعراء عصره نَسِيجُ وَحْدِهِ.

والظاهر أنَّ الدهر قد نال من مهيار بما ينال به من النبغاء ذوي العبقرية، إذا هو ناء عليهم بخصاصة أو عضهم بناب من الفقر أو خصهم بسوء الحظ، وسد في وجوههم كل باب فتح لغيرهم من أمثالهم، ولكثير ممن هم أقل منهم في الأدب قدرًا وأحط منهم في العلم مكانة، ولهذا تراه في شكواه من الزمان ومن أهله مثال الصبر والشجاعة، ومثال الأمل الحي الذي تفيض به الأنفس الكبيرة التي لا تعرف من اليأس إلا اسمه، وكثيرًا ما يبقى أملهم حيًّا بين جنوبهم حتى يُطوى مع أبدانهم في أكفان الأبدية، لهذا نجتزئ ببضعة قطع من شعره تدلك على حقيقة نفسه، وعلى أمله العريض في الحياة، قال:

فما بالي أرى الأيام تنحى ... علَيَّ مع المشيب وهن شيب
عذيري من سحيل الود يحوي ... حقيبة رحله فرس نجيب
وفَى لي وهو محصوص وأضحى ... غداة ارتاش وهو عليَّ ذيب
ومحسودٍ علي تضيق عني ... خلائقه وجانبه رحيب
لطيْتُ له فَغُرَّ بلين مَسِّي ... ورُبَّ كمينةٍ ولها دبيب
تَوَقَّ عضاض مختمرٍ أُخِيفَتْ ... جوانبه وفي فِيهِ نيوبُ
فإن الصِّلَّ يُحذر مُستميتا ... وتحتَ قبوعِهِ أبدًا وُثُوبُ
أنلني بعض ما يرضي فلو ما ... غضبت حماني الأنف الغضوب
ومن هذا يرد عنان طرفي ... إليك إن استمر بي الركوب
سترمي عنك بي إبلي بعيدًا ... وتنتظر الإياب فلا أءوب

وقال في قصيدة أخرى:

على أي أخلاق الزمان أعاتبه ... وما هو إلا صَرْفُهُ ونوائبه
تَفَرَّى أَدِيمي وهي بُتْرٌ شِفاره ... وجافت جروحي وهو صُمٌّ مخالبه
نُدوبٌ تُقَفِّي هذه بعد هذه ... وداء إذا ما باخَ أوقد صاحبه
شغلتُ يدي حِينًا بِعَدٍّ ذنوبه ... وزِدْنَ فقد تاركتُهُ لا أحاسبه
طرحتُ سلاحي وانتزعتُ تمائمي ... وضاربُه يُنحي عليَّ وسالبه

بِبِيضٍ من الأيام هُنَّ سيوفه وَسُودٍ من الليلاتِ هن عقاربه
أدامجه حتى يراني راضيا مِرارًا وأعصي مرة فأغاضبه

وله شكوى بالغة في قصيدة مطلعها:

دعها تكن كالسُّلْف من أخواتها تجري بها الدنيا على عاداتها

ولعله كتبها في بدء عام جديد، وفيها يقول:

ما هذه يا قلب أول عثرة قذفت بك الأطماع في لَهَوَاتِهَا
هي ما علمتَ وإنْ أَلِمْتَ لفضلة من ثُقْلِ وطأتها وَحَدِّ شباتها
كم خطوة لك في المنى أزليقة لم تنتصر بلعًا على عثراتها
وذخيرة طفقت يداك تضمها والدهر خلفك مولع بشتاتها
ووثيقة ألجأت ظهرك مسندا بغرورها فسقطت في مهواتها

ومن هذه القصيدة هذه الأبيات المشهورة:

إن كان عندك يا زمان بقية مما يضام به الكرام فهاتها
صبرًا على العوجاء من أقدارها لا بد أن تجري على ميقاتها
ولعلها بالسخط منك وبالرضى أن تستقيم طريقها بحداتها

أما مراثيه فأقربها إلى مراثي أبي العلاء ديباجةً وأمتنها عبارةً، وأكثرها انسجامًا، فمرثيته في أستاذه وصديقه ورفيق حياته الشريف الرضي، وهي من أمتن مراثي العرب ومطلعها:

أقريش لا لفم أراك ولا يد فتواكلي غاض الندَى وخلا النِدِي
خولستِ فالتفتي بأوقص واسألي من بز ظهرك وانظري من أرمد
وهَبِي الدخول فلست رائد حاجة تقضى بمطرور ولا بمهند
خلَّاك ذو الحسبين أنقاضًا متى تُجْذَبْ على حبل المذلة تَنْقَدِ

فإذا تشادقتِ الخصومُ فلجلجي وإذا تصادمت الكُماة فعرِّدي
يا ناشد الحسنات طوِّفْ قاليًا عنها وكاد كأنه لم ينشد
عادت أراكةُ هاشم من بعده خورًا لفأس الحاطب المتوقد

وفيها يقول:

أنفقتَ عمرك ضائعًا في حفظها وعققتَ عيشكَ في صلاح المفسد
كالنار للساري الهداية والقِرى من ضوئها ودخَانها للموقد
من راكب يسع الهمومَ فؤادُه وتُناط منه بقارح متعود
أَلِفَ التطرُّح فهو ما هددته يسري فواق البيد غير مهدد
يطوي المياه على الظما وكأنه عنها يضل وإنه للمهتدي
صلب الحصاة يثور غير مودع عن أهله ويسير غير مزود
عدلت جويَّته على ابن مفازة مستقرب أَمَمَ الطريق الأبعد
يجري على إثر الضِّراب كأنه يمشي على صرح بهنَّ مُمَرَّد
يمشي الوهاد بمثلها من مهبط وربى الهضاب بمثلها من مصعد
قرب قربت من التلاع فإنها أمُّ المناسك مثلها لم يقصد
رأبًا به حتى تريح بيثرب فتُنيخه نقضًا بباب المسجد
واحثُ التراب على شُحوبِك حاسرًا وانزلْ فعز محمدًا بمحمد
وقل انطوى حتى كأنك لم تلد منه الهدى وكأنه لم يولد

ومنها:

ولئن غُمزتَ من الزمان بلين عن عجم مثلك أو عُضضتَ بأدرد
فالسيف يأخذ حكمه من مغفر وطلًى ويأخذ منه حد المبرد
لو كان يعقل لم تنلك له يد لكن أصابك منه مجنون اليد

وإني أجتزئ من هذه القصيدة بهذه الأبيات، ولو طاوعت قلمي لجرى بها كلها، فليس فيها موضع تفضله على سواه، وليس فيها من معنًى أو تركيب، أو سياق يقف في سبيل ذوقك الأدبي، وهي من ألفها إلى يائها على هذا النحو من قوة السبك وحسن البيان.

ومهيار نسيبه قليل، وتشبيبه أقل، ولعل صروف زمانه قد صرفته عن التغني بالحسان والتشبيب بهن، على أنَّ له في هذا المجال جولات يبز بها كثيرًا من الشعراء نذكر له شيئًا على سبيل الاستدلال، قال:

سلمتِ وما الديار بسالمات ... على عَنَتِ البِلى يا دار هند
ولا برحتْ مُفَوَّقَةُ الغوادي ... تصيب رُبَاكِ من خطأ وعمد
بموقظة الثرى والتُّرْبُ هاد ... ومجدبة الحيا والعامُ مُكدي
على أني متى مطرتْكِ عيني ... ففضلٌ ما سقاك الغيث بعدي
أميل إليك يجذبني فؤادي ... وغيرُك ما استقام السيرُ قصدي
وأُشفق أن تبدلك المطايا ... بوطأتها كأن ثراكِ خَدِّي
أرى بكِ ما أراه فمستعير ... حَشَاي وواجد بالبَيْنِ وجدي
وليتكِ إذ نحلتِ نحول جسمي ... بقيت على النحول بقاء عهدي
وما أهلوكِ يوم خلوتِ منهم ... بأول غدرة للدهر عندي
سل الأيام ما فعلتْ بأُنسي ... وعيش لي على البيضاء رغد
وفي الأحداج من رَشَأٍ حبيبٌ ... على ثوبيه من صلة وَصَدِّ
يماطل ثم ينجز كل وعد ... ولم ينجز بذي العلمين وعدي

وبعد، فهذا مهيار بن مرزويه الديلمي ما إن نصفه لك بوصف أو ننعته لك بنعت، وما إن نصور لك صورة من نفسيته، فإن شعره وديباجته لأوثق في الأدب من أن يحيط بهما قلم كاتب مثلي، وإنهما لأعرق في الأدب من كثير مما يجري على ألسنة المتأدبين في هذا العصر، فهل هذا الجيل يكون من مهيار ومن شعره وأدبه الْجَمِّ أوفى حظًّا وأوفر نصيبًا من أسلافه الأقربين؟